فصل

في أنَّ الملوكَ ربما يَكرهون مَنْ يشارِكُهم في العزِّ، ويبسطُ في الأمرِ والنهيِ، ويستبدُّ دونَهم بمعاظم الشؤون

من أخلاقِ الملوكِ أبادة المالِ والجاه، وعزِّ الأمر والنهي، وثمرات الدنيا كلِّها، يختارون لأنفسِهم، ويكرهون من يشاركهم في سرور السياسة، ويستبدُّ دونهم بالحلِّ والعَقْد، وتخدِمُه الناسُ، ومن تَتعلقُ به الآمالُ، ولو كانَ من صنائِعهم، وغروس أيديهم، ومن ههنا أُتي أبو أيوب المرزباني، وزيرُ المنصورِ حين أخبرَ المنصورَ بعضُ رسلِه إليه، بأنه وجدَ عنده الحسَن بن قحطبة، وجذيمةَ بن حازم قاعدَيْنِ بينَ يديه فدعاه ووبّخَه، وقال له: بلغَ من عُلوِّ شأنك وعظمتِك؛ أن تنظرَ إلى مَنْ أعددتهم لدولتي، مَنْ إذا انْفَتَقَتْ عليَّ ناحية رَتَقْتُها بهم فتدنهم وتجلسهم بين يديك، واللّه ما أمِنْتَ في مجلسك إلا بهم، ولا نفدت أقلامك إلا بأسيافهم فنكبَه بعد أيام قلائل، وقال فيه الشاعر:

قد رأينا الملوكَ تحسدُ
من أعطَتْهُ طوعاً أَعِنَّةَ التدبير
فإذا ما رأوا له النهي والأمر
أَوْلُوهُمُ من عَرْفَةِ التنكيرِ

ولم يكنْ سببُ استئصالِ الرشيدِ البرامكةَ، إلا ما رآه من ارتفاع مقادِيرهم، وعلوّ شأنهم، ونفاذ أمرهم، وبسط أيديهم في الأعمال والأموال، وخروجهم في الجود من الحدود، وهكذا كانتْ حال الفضلِ بن سَهْلٍ ذي الرياستين، فإن أمورَ المأمونِ كلَّها كانتْ إليه، والمأمونُ كالخالي منها، إلى أن ضَجِرَ منه ففعلَ ما فعل.